

الزعيم نصف ناثر . . ونصف شاعر . . وكل إنسان

«غوما» أو «الزعيم» هي الجهد المسرحي الرابع للدكتور «مصطفى محمود» وهي إذتجىء بعد مسرحياته الثلاث الأولى ، إنما تشكل خطوة أعمق أثرا وأبعد مدى في مسيرته الصاعدة نحو تعبيرية درامية جديدة في مسرحنا العربى المعاصر . . تعبيرية تجمع بين حرارة الفكرة وشفافية العبارة ، بين الأنغام الحادة والألوان الصارخة ، بين المعانى القوية والإيماءات العنيفة ، وكلها بمثابة الخيوط التى نسج منها «مصطفى محمود» مسرحياته الأربع .

غير أنه إذا كان فى مسرحيته الأولى «الزوال» قد اتجه نحو التعبيرية الذهنية ، واتجه فى المسرحية الأخرى (الإنسان والظل) نحو التعبيرية السيكولوجية ، ثم اتجه فى المسرحية قبل الأخيرة (الإسكندر الأكبر) ، نحو التعبيرية التاريخية ، فهذا هو فى المسرحية الأخيرة (الزعيم) يتجه صوب التعبيرية وقد ارتدت ثوب التراث ، وليس هو (التراث) الذى لا ينتمى إلينا ولا ننتمى إليه ، بمقدار ما هو التراث الذى نربطنا به صلات الرحم ووشائج القرى ، فضلا عما فى هذا التراث من حيث هو فكر لا من حيث (تاريخ) من إسقاطات على واقعنا الحضارى المعاصر .

فهنا مسرحية تتخذ من سيرة «غوما المحمودى» موضوعاً لها ، «وغوما» هذا

هو البطل الليبي العربي الذي كافح الاستعمار التركي في الشمال الأفريقي عشرين عاماً ، وكانت حياته نهياً لأشواق الشاعر ونضال الناصر ومعاناة الإنسان ، فكافح حتى اعتقل ، ثم كافح حتى نفى ، وأخيراً كافح حتى استشهد .

ومهما يكن من اختلاف الآراء حول شخصية « غوما » وحول حقيقته التاريخية ، وهو الاختلاف الذي حدا بالبعض إلى المغالاة في تقديره ، وحدا بالبعض الآخر إلى التقليل من هذا التقدير ، فالثابت تاريخياً أنه كان بطلاً شعبياً ثار على الظلم ، وهذا هو ما عبر عنه بقوله : « إنما الظلم هو ما أنور عليه وليس الحاكم » وعندما يقول له صاحبه وهو يحاوره « هذا شعر » ، يرد عليه « غوما » : « وهل الفروسية إلا شعراً . . . إن الفارس إذا فقد قلب الشاعر لم يبق منه إلا الجزار والسفاح والقاتل . . ونحن لسنا قتلة » يا عبد الجليل . نحن عشاق أحبينا بلادنا حتى الموت . .

والذي يعنينا الآن من هذه السيرة هو أن « مصطفى محمود » عندما اتخذها موضوعاً مسرحيته ، توقف عند صور بعينها من صور هذه السيرة ، هي صور الناصر والشاعر والإنسان ، التي تكفي لخلق بطله التراجيدي من ناحية ، والتي تكشف من ناحية أخرى عن رؤيته للشخصية العربية المسرحية . فهو لم يحرص على الصدق التاريخي بمقدار ما حرص على الصدق الفني ، والفرق الحقيقي بينهما كما يقول « أرسطو » هو أن التاريخ يروى ما قد حدث ، في حين أن الفن يروى ما يمكن أن يحدث ، وهذا معناه أن الفنان حر في مادته التاريخية ، بشرط أن يكون قادراً على إقناعنا أو إيهامنا بأن ما يعرضه علينا من أحداث قد وقع فعلاً أو يمكن أن يقع ، فالإقناع أو الإيهام هو الحد الفاصل بين الفن واللا فن .

وكما تتضح العلاقة بين الفن والتاريخ في هذه المسرحية ، تتضح كذلك فكرة

الكاتب عن البطولة والبطل ، « فغوما المحمودى » بطل لأن طموحه أكبر من طموح الرجال العاديين ، وهو بطل تراجيدى لأن فيه عيباً معيناً سيقضى عليه فى النهاية - ونحن نأسى لمصرعه لأن الشهامة البدوية التى أودت به هى التى نستشعرها جميعاً .

تلك هى الفكرة المحورية فى مسرحية (الزعيم) التى عالجها (مصطفى محمود) فى ثلاثة فصول تقليدية البناء برغم تعبيرية الشخصية أو المضمون ، فالفصل الأول ترسم فيه صورة الناظر حيث الكفاح ثم الاعتقال ، وذلك عندما تهزم الجيوش التركية جيش الدولة القره مانلى وتعود طرابلس إلى الخلافة العثمانية ، ويحىء الوالى التركى ليحكم البلاد ، ويجمع الضرائب فيشعر الأهالى كأنما الاستغلال لم يستبدل إلا باستغلال آخر ، فينبى (غوما) صارخاً : « الكل يجب أن يثوروا يداً واحدة . . . يجب أن نتطلق كالرياح فى الجهات الأربع ، لنكون العيون والآذان لهم جميعاً » .

ويجمع الوالى أعيان طرابلس ومشايخها فى المسجد ليأخذ عليهم العهد والميثاق ، فينبى « غوما » أيضاً مطالباً بإعفاء الأهالى من ضريبة الأشجار ، فيكيد له « أحمد قورجى » نائب الوالى ، ويأمر بإلقاء القبض عليه بعد انصراف الجمع ، ولكن اعتقال « غوما » يؤدى إلى إشعال الثورة ، فيضطر السلطان إلى عزل الوالى والتفاوض مع « غوما » وفى الوقت الذى يرفض فيه « قاسم » هذا المبدأ يصرخ فيه « غوما » : « أى مبدأ . . . ليس مبدؤنا أن نقتل . . . لسنا قطاع طرق . . . نحن ثوار » .

ويحىء الفصل الثانى ليرسم صورة الشاعر حيث الكفاح ثم الننى ، فالرجلان يفترقان كل إلى سبيل ، « قاسم » إلى قيادة الثوار « وغوما » إلى مهادنة الأتراك ،

فضمير الشاعر في أعماقه ينجح إلى السلام ، ويحاول أن يصافح كل يد تمتد إليه بعدالة، وهو يبرر ذلك لصاحبه «قاسم» بقوله : «إننا بدو حفاة نحارب إمبراطورية . . ولا يمكن أن نتصر بدون الحيلة والسياسة ، يد تصافح ، ويد تطعن في الظهر» .

ويرتاب «قاسم» في موقف «غوما» ، فيطبق نفس المبدأ ، وينضم إلى صفوف الأتراك ، على أمل أن يقوض الإمبراطورية من الداخل ، ولكن الموقف ينعكس ، ويلقى القبض على «غوما» وينفى خارج البلاد .

أما الفصل الثالث والأخير ، ففيه ترسم صورة الزعيم والإنسان ، حيث الكفاح ثم الاستشهاد ، «فغوما» يعود من منفاه ليسوى حسابه مع قاسم ، ومع كل العيون التي رمقته في ازدياء من خلف الجدران . وتندلع الثورة في كل مكان . ثورة «غوما» فيها هو الروح ، وجسدها هو كل الناس . ويحرص «غوما» على أن تكون ثورة شريفة عادلة ، فيأمر برد كل الغنائم إلى مقر الوالي ، وعندما يختلف معه قواده يصرخ فيهم : «أنا لا أنتظر جزاء . . إن ما نفعله . نفعله لنعطى الثورة شرعيتها أمام العالم» . . وهذا ما يعلق عليه «قاسم» الذي وقع أسيراً في قبضة «غوما» : «إنه يحارب بقلب الشاعر وشهامة البدوي . . هذه بشائر النهاية» . وتكون بالفعل بشائر النهاية ، حيث لا يهتم الأعداء بالشرعية وعدم الشرعية في عالم من القتل والسفاحين ، فتتكاثر جيوش الإمبراطورية العثمانية على رجال «غوما» ، حتى يتفرقوا في الصحراء واحداً بعد الآخر ، ويحارب كل رجل منهم بألف ، ولكن الظلم يفترس الجميع ، إلى أن يهوى «معروف» الخادم الأمين ، ومن بعده يهوى «غوما» . . أول الثوار وآخر الشهداء .

وهكذا تنتهى مسرحية «الزعيم» التي اقترب فيها «مصطفى محمود» من فكرة

البطل التراجيدى أكثر من اقترابه من البناء التراجيدى ، فحين قسم شخصياته إلى جبهتين ، جبهة خيرة على رأسها « غوما » وجبهة شريرة على رأسها « قاسم » ، كان أقرب إلى القالب الملحمى ، حيث الصراع الخارجى الذى هو أقرب إلى روح الملحمة منه إلى روح المأساة . وصحيح أن المواجهة بين « غوما وقاسم » كانت أشبه بالمواجهات التراجيدية كالتى بين « أوديب ، وثيرزياس » فى مسرحية « سوفوكليس » ، أو بين « القديس توماس بيكيت » و« الملك هنرى الثانى » فى مسرحية (جان أنوى) ، ولكنها المواجهة التى كانت تحتاج إلى مزيد من العمق لافى الشخصية ولكن فى الصراع .

أما عن البناء المعمارى للمسرحية ، فلم تكن بالكاتب حاجة لأن يقيمه على ثلاثة طوابق أو ثلاثة فصول ، ينطوى كل منها على عدة مشاهد ، فالفصول لا يؤدى كل منها إلى الآخر بحكم الحتمية الفنية ، والمشهد لا تترابط فيما بينها ترابطاً عضوياً ، ولكنها تتكامل فيما بينها بحيث تعطينا فى النهاية نوعاً من الانطباع الكلى العام .

وربما كانت لغة المسرحية التى هى أقرب إلى لغة التخاطب ، التى لا تلحق إلى سماء القصصى ، ولا تهوى إلى حضيض العامية هى أبرز إيجابيات هذا العمل ، وقد استطاعت حرارة الفكرة وشفافية العبارة وهما الجناحان اللذان يخلق بهما « مصطفى محمود » فى كتبه وكتابات ، أن يشيعا الدفء فى كافة أرجاء المسرحية .

وقد نجح المخرج « جلال الشرفاوى » فى أن يحقق لهذا النص توازناً رقيقاً بين العمق الفكرى والإبهار البصرى ، وأن يحافظ على الإطار التقليدى الذى يحتفظ للنص بعبق الماضى وأريج التراث ، غير أن استخدامه للإظلام التام بين المشاهد ، أصاب العرض بنوع من الإطالة والملل ، ولو أنه استثمر المطرب (محمد رشدى) فى

الأداء الحى فوق المسرح ، بدلا من التسجيل الصوتى ، لمساعد ذلك على ربط المشاهد بعضها ببعض الآخر ، وعلى إثراء العرض بوجه عام ، كذلك لم يستمر الراقصة (زيزى مصطفى) إلا فى رقصة واحدة ، وكان يمكن استثمارها فيما هو أكثر من ذلك بكثير .

وفى عدا ذلك استطاع « جلال الشرفاوى » بحق أن يشكل من حركة الجماهير تكوينات مسرحية بارعة ، وأن يختار من الموسيقى والألحان ما هو أقدر على تجسيد النص ، على العكس من لوحات الديكور التى أحيطت بإطار أسود فاقع أعاق الرؤية وعطل الخيال .

وكان المخرج موفقاً إلى حد كبير فى توزيع الأدوار الرئيسية وبخاصة « أنور إسماعيل » فى دور (قاسم) ، الذى عرف كيف ينى بأبعاد هذا الدور هبوطاً وصعوداً ، تقمصاً وإقناعاً ، فضلاً عن قدرته على التلوين الصوتى . كذلك وفق (عادل بلو الدين) فى دور « معروف » لا من خلال حضوره الكوميدى ، ولكن من خلال قدرته على الأداء . على العكس من (حسن عابدين) الذى أدى دور اللواء دون أن يتناسب هذا الدور مع موهبته الكوميدية الصارخة والواضحة ، أما « فؤاد أحمد ، وحسن حسنى » فقد استطاع كل منهما أن يترك بصمات أدائية واضحة على جبين دوره الصغير ، وأخيراً يحيى « شكرى صرحان » فى دور « غوما » تجسيدا شكلياً حياً لأبعاد هذا الدور ، سواء من الناحية التشكيلية فوق المسرح ، أو الحضور الدرامى داخل إهاب الشخصية ، ولكنه كان يحتاج فى بعض المواقف إلى إشباع دوره ، وتلوين صوته ، والانفعال أعمق وأصدق بأبعاد الشاعر والتأثر والإنسان .

مهما يكن من شىء فإن مسرحية (الزعيم) بحق تعد نسيماً جاداً وجديداً يهب

على حياتنا المسرحية ، لما فيها من محاولة إحياء التاريخ الماضى فى وجدان الواقع الحاضر ، والبحث عن الملامح المسرحية فى الشخصية العربية بوجه عام ، والإشادة بالقيم الإيجابية التراثية فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ نضالنا الوطنى والقومى ، ثم هى بعد هذا كله التعبير الفنى عن وحدة الأمل ووحدة العمل على امتداد الصحراء الكبرى ، الأمل فى ثورة خضراء تكسو هذه الصحراء ، والعمل على تحقيق هذه الثورة !